جدلية الإبداع

بين التقييد والانطلاق

الإبداع الأدبي عملية معقدة ذات مراحل متشابكة يمر بها المبدع ويعيش تحت وطأتها حتى يخرج نتاجه إلى حيز الوجود جسدًا متكاملاً ، واضح المعالم ، بين السمات ويصبح بين يدي المتلقي .

في هذه المراحل تتشابك وتتداخل أمور كثيرة أبرزها الجانب اللغوي متمثلاً في ثروة المبدع اللفظية والأسلوبية وما يضبط نظمها من قواعد النحو والعروض والجانب النفسي ممثلا في مدى انفعال صاحب العمل الأدبي ومدى تأثره بموضوع عمله واستعداده للكتابة فيه وهو ما يطلق عليه التجربة الشعرية يضاف إلى ذلك الموهبة والاستعداد وما لدى المبدع من مخزون ثقافي وخبرات حياتية .

ولا يستطيع الناقد أو الباحث فصل مرحلة عن الأخرى ، فكلها تتشابك إلى حد كبير يصعب معه الإمساك بجانب دون الآخر ، حتى أن المبدع نفسه لا يدري من أمر هذه المراحل شيئا ، كل ما يدريه أنه يقع تحت تأثيرها فتتفاعل ثروته اللغوية مع حالته النفسية ودرجة انفعاله قوة أو ضعفا ، وقد اعترف بذلك نزار قباني إذ يقول " أنا لا أكتب القصيدة ، إنما هي التي تكتبني " مشيرًا إلى حالة المبدع حال إنتاج عمله .

والحقيقة التي ينبغي ألا نغفلها هي ما يتاح للمبدع من حرية أو ما يقع تحته من قيود في التعامل مع تجربته ، وأعني بالقيود هنا المؤثرات وإطار التجربة

وهي أغلال يضع المبدع نفسه فيها برغبته وبرضا منه . أما ماعدا ذلك فهو حر طليق ، يغرد كيفما شاء كالطائر ينتقل من فنن إلى فنن .

وفي ثنايا مصادر الأدب وبطون المراجع ما يؤكد حرص الشاعر في كل زمان على حريته ، وإعطاء نفسه مساحة من الانطلاق تتيح له تكوين نتاجه وتحديد معالمه ، ومنهم من غالى في هذه الحرية فخرج على نظام القبيلة والمجتمع من حوله وأبى إلاّ العيش في الخلاء ، حيث الفضاء الرحب والمدى الواسع من حوله كالشعراء الصعاليك:

الشنفرى ، والسليك بن السلكة ، وعروة بن الورد، وتأبط شرا وغيرهم ، وهذا الشنفرى في لاميته يقول مشيدا بحريته التي ينشدها ، وأصحابه الذين اتخذهم عوضا عن أهله ، فهو ينبه بني أمه أنه غير راغب فيهم ، وأنه سيميل لغيرهم ، فهو كريم يأبى المذلة وأن يعيش مهانا في قومه ، وفي الأرض متسع ومأوى لكل كريم يخاف من الهجر واعتزال الناس ، يقول :

أَقِيمُوا بَنِي أُمِّي صُدُورَ مَطِيِّكُم
فَإِنِّي إِلَى قَوْمٍ سِوَاكُم لأَمْيَلُ
فَقَد حُمَّتِ الحَاجَاتُ وَاللَّيلُ مُقمِرٌ
وَشُدَّت لِطِيَّاتٍ مَطَايَا وَأَرحُلُ
وَفِي الأَرضِ مَنْأَىً لِلكَرِيمِ عَنِ الأَذَى
وَفِيهَا لِمَن خَافَ القِلَى مُتَعَزَّلُ
لَعَمْرُكَ مَا فِي الأَرضِ ضِيقٌ عَلَى امرِئٍ
سَرَى رَاغِبًا أَو رَاهِبًا وَهُوَ يَعقِلُ

وتعبيرًا عن الحرية فقد اتخذ لنفسه أهلا غير أهله ، يرى فيهم الخير، يحفظون سره ، ولا يخذلونه إذا ارتكب جناية أو اقترف ذنبا :

ولـــي دُونَكـــم أهلُـــونَ سِـــيدٌ عَمَلَّـــسٌ
وَأرقَـــطُ ذُهلُـــولٌ وَعَرفَـــاءُ جَيـــلُ
هُـــمُ الـــرَّهطُ لاَ مُســـتَودَعُ السِـــرِ ذَائِـــعٌ
لَـــدَيهِم وَلا الجَـــانِي بِمَـــا جَـــرَّ يُخـــذَلُ
وَكُـــلُّ أبِـــيٍّ بَاسِـــلٌ غَيـــرَ أنَّنِـــي
إذَا عَرَضَـــت أولَـــى الطَّرَائِـــدِ أبسَـــلُ
وَلَن مُـــدَّت الأيـــدِي إلَـــى الـــزَّادِ لَـــم أكُـــن
بِـــأعجَلِهِم إذ أجشَـــعُ القَـــومِ أعجَـــلُ
وَمَـــا ذَاكَ إلا بَســـطَةٌ عَـــن تَفَضُّـــلٍ
عَلَـــيهِم وَكَـــانَ الأفضَـــلَ المُتَفَضِـــلُ (١)

ويبين أن السبب في ابتعاده عنهم أنه لم يجز بالحسنى منهم ، ولم يجد في قربهم ومصاحبتهم ما يدعو إلى المصاحبة :

وَإني كفَانِي فَقدَ مَن لَـيسَ جَازِيـا بِحُسنىَ وَلا فِـي قُربِـهِ مُتَمَلَّـلُ

فأصحابه الذين ارتضى صحبتهم ثلاثة : قلبه النابض المحب ، وسيفه القاطع المصلت ، ومهرته الطويلة العنق السريعة :

ثَلاثَـــةُ أصـــحَابٍ: فُـــؤَادٌ مُشَـــيَّعٌ
وَأبـــيَضُ إصـــلِيتٌ وَصَـــفرَاءُ عَيطَـــلُ
هَتُـــوفٌ مِـــنَ المُلـــسِ المتُـــونِ يَزِينُهَـــا
رَصَـــائِعُ قَـــد نِيطَـــت إلَيهَـــا ومِحمَـــلُ

إذَا زَلَّ عَنهَـــا السَّـــــهمُ حَنَّـــــت كأنّهَـــــا
مُـــــرزَأةٌ عَجلَـــــى تُـــــرِنُّ وتُعـــــوِلُ

وما فعله الشنفرى وغيره من شعراء الصعاليك كان الدافع إليه حب الحرية والانطلاق ، فهم لا يرتضون القيود ، ولا يحبون أن يفرض عليهم شيء .

وهذا المتنبي أمير الشعر العباسي ، الذي ملأ الدنيا وشغل الناس ، ظل يفرد في بلاد الشام في بلاط سيف الدولة الحمداني ، يصدح بأعذب الألحان ، ويشنف الآذان ، فلما أهين في مجلس الشعر ، ولم ينصفه ممدوحه عاتبه منبها إياه من الغفلة ، وألا ينخدع بكلام المداهنين المخادعين المحيطين به ، وأن يعرف الناس على حقيقتهم فقال :

يا أعدلَ النّاسِ إلاّ فـــي مُعـــامَلَتي ... فيكَ الخِصامُ وَأنتَ الخصمُ وَالحكَـــمُ
أُعِـــذُها نَظَـــراتٍ مِنـــكَ صـــادِقَةً ... أن تحسَبَ الشّحمَ فيمن شحمهُ وَرَمُ
وَمَا انتِفَـــاعُ أخـــي الـــدُنيَا بِنَـــاظِرِهِ ... إذا استَوَتْ عِنْـــدَهُ الأنـــوارُ وَالظُّلَـــمُ

ويصرح بعد ذلك معلنا الرحيل عن قوم لم يقدروه حق قدره ، ومبينا أن شر المكان الذي لا يجد فيه المرء الصديق والرفيق ، ولا يجد فيه الراحة والتقدير وعندئذ يكون الرحيل أمرا واجبا محببا ، فيقول :

بِـــامَنْ يعِـــزّ عَلَيْنَـــا أنْ نُفَـــارِقَهُمْ ... وِجدانُنا كُلُّ شيءٍ بَعـــدَكمْ عَـــدَمُ
مَا كَـــانَ أخلَقَنَـــا مِـــنكُمْ بتكرِمَـــةٍ ... لَوْ أنّ أمْـــرَكُمُ مِـــن أمرِنَا أمَـــمُ
إنْ كانَ سَرّكُمُ مـــا قَـــالَ حاسِـــدُنَا ... فَمَا لِجُـــرْحٍ إذا أرْضَـــاكُمُ ألَـــمُ
أرى الهَوَى يَقتَضِيني كلَّ مَرْحَلَـــةٍ ... لا تَستَقِلّ بها الوَخّـــادَةُ الرُّسُـــمُ
لَئِنْ تَرَكْنَ ضُـــمَيْرًا عَـــنْ مَيامِنِـــنا ... لَيَحـــدُثَنّ لمـــنْ وَدّعْـــتُهُمْ نَـــدَمُ

إذا تَرَحَّلْتَ عن قَوْمٍ وَقَـدْ قَـدَرُوا ... أنْ لا تُفارقَهُمْ فالرّاحِلونَ هُـمُ

شَـرُّ البِلادِ مَكانٌ لا صَديـقَ بِهِ ... وشَـرُّ ما يَكسِبُ الإنسانُ ما يَصِمُ

وَشَرُّ ما قَنَّصَـتْهُ رَاحَتـي قَـنَصٌ ... شَهْبُ البُزاةِ سَواءٌ فيهِ والرَّخَمُ (٢)

ثم قال لمن حوله " لم يعد للمتنبي مقام في حلب " وقرر الرحيل إلى مصر، علّه يجد فيها الراحة والمكانة اللائقة. وكان له فيها ما كان مع كافور الإخشيدي فكتب فيه قصيدة الهجاء المشهورة، وارتحل بعدها إلى بلاد الشام مرة أخرى، وظل فيها متنقلا حتى لقي حتفه.

وهذا نزار قباني شاعر العصر الحديث الذي ملأ الدنيا بشعره، لم يقبع في مكان، بل ظل متنقلاً، يرتحل من بلد إلى بلد آخر، يقيم حيث توجد الحرية ويرحل عندما يختنق ويشعر بالأغلال تقيد فمه وتمسك عليه لسانه، وتعوقه عن قول الحقيقة، ويعلل رحيله وانتقاله بأنه لا يرتضي المذلة والمهانة، ويقول:

لأنني لا أمسـح الغبار عن أحـذية القياصرة
لأنني أحارب الطاعون فـي أمتـي المحاصـرة
يحـاربني كـل الطـغاة والجبابـرة (٢)

ولذا نراه يقول عن الحرية: "أتصور، أنه لابد من أن نتفق على تعريف مبدئي لمعنى الحرية حتى لا تتداخل حدود الأشياء وتضطرب الرؤية، ويختلط اللون الأبيض باللون الأسود وأول ما أتصوره هو أن الحرية حركة فردية داخل دائرة الجماعة هذه الجماعة يمكن أن تكون أسرة أو قبيلة، أو جمعية، أو مدرسة أو وطناً. ومعنى هذا أن الحرية هي خط هندسي ضمن دائرة، وليست أبداً حركة في الفراغ أو المطلق..

وكما أن البحر محدود بالشواطئ والريح محدودة بالجبال، والأنهار محدودة بضفافها ، والطائرات محدودة بمدارج الصعود والهبوط، والعصافير محدودة بمساحة أجنحتها فإن الإنسان هو الآخر محدود بمسؤوليته واستعمال الحرية كاستعمال المستحضرات والعقاقير الطبية، لا يمكن أن يكون بغير مقاييس ومعايير وضوابط وإلا كانت الحرية قاتلة".(٤)

ويقول عن الكتابة : الكتابة هي فن التورط ولا كتابة حقيقية خارج "التورط". الكتابة ليست سجادة فارسية يمشي عليها الكاتب كما يقول جان كوكتو ولا مقعداً مغلفاً "لأوبوسون "، ولا مخدة من ريش العصافير تغوص رؤوسنا فيها ، ولا يختاً خاصاً نتشمس على ظهره....

إن الكاتب يجب أن يظل في أعماقه بدوياً يتعامل مع الشمس والملح والعطش .. يجب أن يبقى حافي القدمين حتى يتحسس حرارة الأرض ونتوءاتها ووجع حجارتها.. يجب أن يبقى عارياً كحصان متوحش، ورافضاً كل السروج التي تحاول الأنظمة وضعها على ظهره. ومتى فقد الكاتب بداوته ، وتوحشه وقدرته علي الصهيل، ومتى فتح فمه للجام الحديدي، ومنح ظهره للبراكين، تحول إلى "أوتوبوس حكومي" مضطر إلي الوقوف على جميع المحطات والخضوع لصفارة قاطع التذاكر." (٥)

والنماذج كثيرة في مراجع الأدب تؤكد لنا أن الحرية والانطلاق من لوازم الشاعر ، وهي الأرض التي يبني عليها وفي ظلالها أبعاد تجربته ، ويرسم حدودها .

الهوامش

١- الشعر الجاهلي ، شوقي ضيف .

٢- شرح ديوان المتنبي للبرقوقي.

٣- الأعمال السياسية لنزار قباني.

٤- الأعمال الكاملة ، الكتابة عمل إنقلابي ، ص٣١.

٥- نفسه ، أتوبوسات الشعر ، ص ١٥.